أروى محمد كامل

صفحة من الغيب

في صباح أعلنت الشمس فيه الرضا بأن تمنح الكون ضوءها من جديد، تقف الحياة بيد تصافح الأمل تقلّب أوراق التقويم، حتى تعالت الصرخات من تلك الغرفة فيولد التاريخ على يد القابلة، تاريخ وجه يتحدث بلغات الجمال (ماشاء الله صبي حلو كتير).

- انطلق السَّهم من قوس البداية، بدأت رحلتك في قطار أنت قائده.....

تبدأ من داخل قماط أبيض يلتف حول نطفة تخلّقت في رحم الغربة تناقلته أيدٍ مختلفة، ومن يدٍ ليدٍ أخرى حتى تصل ليد راحمة تمسح بحنوّ رأسك فتميط عنك كلّ أذى... تهمس بصيحات تكبيرٍ في أُذنيك فتعرف حينها أي منهاج ستنتهج وأي وجهة أنت مولّيها، صوت هادئ يكرر عليك اسمًا يلاحقك ظلُّه ما حييت دون اختيارك بعد أن حاروا في العثور عليه طيلة ليال...

ستتحسّس بكفّك الواهن مواطن الزّاد، ومن أولى قطراته ستذوق أمانًا قد لا تعرف بعده الخوف، ومع تلك الأنفاس الدافئة التي تميزها عن غيرها سيكون لك موطنًا تلجأ إليه عند الحاجة، لكن سيتوجب عليك دخول كل عربة من عربات قطار الرحلة.....

- في أولى عربات القطار يا صديق حيث البدايات الجميلة ودفء الذكريات العالقة في دفاتر الذاكرة - مهما استدعى مشاهدها النسيان - صورٌ تتكون لحين أن تستعاد، سيبدأ غصن أخضر يزهر بداخلك تنمو وتحبو فتخطو نحو النجوم لتحادثها ببراءة

وعفوية، ستجلس على المقاعد الدراسية الأولى ممسكًا بدفتر وأقلام تكتب بها ما يملونه عليك، ممسكًا بألوان ترسُم الحلم بها وتخطُ بها قوس قزح في سمائك الصافية، وبعد أن تكتمل اللوحة تُريها بزهوٍ وفخرٍ لحبيبة الطفولة ذات الوجه المخمليّ، ستكون ذلك البدين الذي لا يستطيع الركض مع أترابه في الحارات فتعلو عليه الأصوات بالضحك والتندّر حتى يأتيك صديقُ العمر الذي يذودُ عنك بينهم – قد يكون حليفك في تلك العربة، لا تستعجل عليه الأمور فلا تدري لعل الأدوار تتبدّل في المواقف الأخرى.

- في العربة التالية ستخرج من سذاجات الطفولة إلى زوارق الصبوة حيث تتأرجح روحك بين البراءة والشيطنة، ستسقط من أعلى شجرة اللوز بعد محاولاتك سرقة حباته الخضراء فتُكسر ساقك، ستدق على بابك أولى أجراس الغرائز فلا تشعر بذلك الخدر الذي يسري بداخلك حين تصل بين يديك رسائل الغرام العفوية من فتاة حيّك فتُحاول مقاومة ابتسامتها، لكن هيهات، فقد لعب الخيال لُعبته معك!

لن تستطيع نسيان بكائهم عليك يوم كدت أن تموت غريقا!

سأغرق؟!! نعم في إحدى محاولات اختلاسك للحظات اللهو على أحد الشواطئ ستغرق، لكن سرعان ما ينتشل ذلك الصياد جسدك مع سمكاته.. نجوت بأعجوبة! ستبكي بحرارة على أخيك المسجّى أمامك بعد أن دهست العجلات رأس أحلامه وصباها....

هكذا هى الحياة تبكيهم أو يبكونك!!

لن يكون العمر كلّه ربيعًا، ستتناوب عليك كلّ الفصول وستعرف الريح الحائرة طريقها إليك ياصديقي، ريح تفتح بابَك لعوالم مغايرة واستثنائية.... عربة التحوّل والأمل... في تلك العربة ستُنقل من مهاد الأحلام إلى اختطاف المُتع من واقعك الشاحب فتقتحم ما كان محظورا عليك في السابق، وفي حياة ملأى بالترقّب والانتظار ستكون دومًا أولهم في صفوفك الجامعية، وثانيهم في أدوار البطولة وآخرهم في العشق حتى أنك ستهوى ثلاث فتيات تحلّق مع كل واحدة منهن في سماوات المُنى، ولن تكون أيّ منهنّ زوجتك.

واحدةٌ أخرى ستخرجتك من تيه التمنّي هى التي ستتزوّجها بعد سجنك.

سأُسجن؟!

نعم ستُسجن وأنت في السادسة والعشرين من عمرك لثلاث سنوات بسبب فرية أحد زملائك في العمل، وتخرج منه فتقرر أن تتنقل بين مواطن الأرزاق في بُلدان مختلفة، ستتزوّج بفتاة طيبة من بلد بعيد تحبُك وتنجب لك ثلاث بنات – ستموت واحدة منهن، ستحزن إثرها ويصيبك الوهن - وولد يُشبهك في طبائعك، ستجني أموالاً طائلة من مساعي العُمر ويأتيك المرض ليحصد جزءًا لابأس به منها.

كما ترى هناك في دروبنا لحظات مُفرحة وأخرى حزينة، فاستمتع بحلوها وإن أضناك مُرّها فاطلب العون من الله وسيأتيك، وإن غاب العون عنك قليلاً فاستمسك باليقين الذي يغيّر لك تلك المشاهد وتواصل فلا وصل إلا به.

وصل السهم لقوس النهاية... واكتمل مابين القوسين.

بعد سيرك في مزالق الأقدار وماعاينته من حمّى الصراعات وحُمق المنافسات فيها - فهي زائلة على كل حال - ستصل إلى ذلك الظلّ الهادئ الذي يبعدك عن التعلّق الأحمق بخيوط الحياة الواهية، ستجلس روحك في العربة الأخيرة لتبحث في ما مضى عن زادها، تتساءل هل ستخبو ذكراها بعد رحيلها - إلا أنها تأبى الفناء - ولكنّها لازالت تحت سطوة الأمل تقاوم وتهرب من ارتداء قماطها الأخير!!

فجأة وفى لمح البصر يحاول الزمن رتق اللحظة باللحظة والمشهد بالآخر من الطفولة للكهولة، يجمّعه لك في شريط سريع لحياتك التي أخفيناها عنك في الغيب فلا تعلمها إلا عند معاينتها في رحلتك.. وبين القماطين تعيش ما تختاره تارة ومايُملي عليك القدر تارةً أخرى، فولّ لما عرفت دُبرك فلا مناص يومًا من طي الصفحة.